النموذج الاجتماعي الثقافي للعائلة الجزائرية

د: حماش الحسين

قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا

جامعة مولود معمري تيزي وزو/الجزائر

ملخص:

يتميز النموذج الاجتماعي الثقافي للعائلة الجزائرية بمميزات متنوعة تهدف كلها إلى تنظيم الحياة الاجتماعية، وتعمل في غالب الظروف، على تحديد سبل التعامل وطرق العيش بين الأفراد والجماعات؛ إذ تشكل بهذه الطريقة منظومة اجتماعية- ثقافية يستنبط منها كل الأفراد أدق المعايير النفسية التربوية والثقافية الاجتماعية الواجب إتباعها مع الآخرين، وعليه فإن شخصية الفرد الجزائري ترتكز من جهة على ظواهر ثقافية تربوية، ومن جهة أخرى على سمات نفسية اجتماعية تعمل على تسيير وتيسير مختلف الجوانب الشخصية، المهنية والعلائقية.

الهدف من هذا المقال إذن هو محاولة لإبراز أحد جوانب الثقافة الجزائرية والمتمثل في بعض الظواهر المذكورة.

أ-الظاهرات السائدة في العائلة الجزائرية:

تسود العائلة الجزائرية ظواهر اجتماعية مختلفة، تهدف كلها إلى تنظيم الحياة الاجتماعية، وتحديد طريقة العيش والتعامل بين الأفراد، مشكلة بذلك نظاما اجتماعيا ثقافيا يستنبط منه كل فرد القواعد والمعايير النفسية الاجتماعية والتربوية التي يجب أن يتبعها في تفاعله الاجتماعي اليومي مع الآخرين.والتي يستلزم عليه أن يلقنها لأعضاء عائلته حتى يتبنوا قيم النظام على أحسن وجه، ويكسبوا أدوارا اجتماعية تتماشى مع مميزاته وأهدافه.

من بين الظواهر التي يمكن أن نلحظها بصفة واضحة لدى بعض العائلات الجزائرية نذكر التزويج الذي يقوم به الأهالي لصالح أبنائهم إذ أن الفتى والفتاة لا يمكن لهما الزواج إلا على يد أهليهما. تجد كذلك ظاهرة الطاعة التي تتمثل في امتثالية الزوجة لزوجها والأبناء لآبائهم ثم هناك السلمية الأسرية التي بفضلها يعرف كل فرد حدود تدخلاته وتفاعله مع كل عضو من أعضائها. ومن الظواهر السائدة أيضا نضيف التفرقة الجنسية بين ممثلي الجنسين، والذوبان في الجماعة العائلية، وفي الأخير تجد ظاهرة التفاخر والتظاهر بالقوة والمال والتشبث بالقيم الأخلاقية لكي تجعل الآخر يتقبل ويرضى عن صفاتك.

وعلى هذا الأساس يمكن التطرق لكل هذه الظواهر المذكورة بشيء من التفصيل والتحليل. فيما سيأتي:

أ-1-ظاهرة التزويج:

يعتبر الزواج من أهم القضايا التي تهتم بها العائلة الجزائرية، نظرا لما قد يكون له من تأثيرات سلبية وإيجابية على الوضع العام للعائلة وخاصة الجانب الاجتماعي منه. لهذا نجد أن أفراد العائلة، خاصة الكبار منهم، يتدخلون في مسألة الزواج وذلك لاعتباره قضية جماعية للعائلة. فلا يحق مثلا لأي فرد من الأفراد يريد الزواج أن يتكفل بهذا الموضوع بمفرده دون علم أو استشارة أهله، إذ أن اختيار الزوج أو الزوجة لا يعد من اختصاص الأبناء لوحدهم فقط بل الآباء أو من ينوبهم. فهم الذين يساعدونهم على إختيار شريك الحياة لابنهم وما على هذا الأخير إلا المسايرة والإعلان عن الموافقة ولكن قبل الوصول إلى الصياغة النهائية لهذا المشروع تجد هناك سياقا متسلسل الأجزاء، حيث تتصل الأم بابنها تقنعه بضرورة الزواج وهي في نفس الوقت على اتصال مستمر للبحث عن الزوجة بنفسها أو بتكليف إمرأة أخرى ، وفي كثير من العائلات تستشير الأم الجيران أو الأقارب الذين شاهدوا البنت في الحمام أو في منزل اعتادوا دخوله (Nefissa Zerdoumi

39-38: 1982). وعند وجود البنت تخبر الأم ابنها وتحاول إقناعه أولا بخصائصها الوظيفية مثلا "عارفة بأشغال البيت، عارفة بأمور الطبخ، سيدة بيت"، ثم تقدم له شخصية ممثلة للنموذج الثقافي المحبذ مثلا حياء حكمة، فضيلة، متحفظة،مطبعة، مقتصدة، وأخيرا تقدم له الأوصاف التي تهمه أكثر كالجمال، والهيئة..الخ (Carmel Camilleri 1973 :28) يلاحظ من خلال هذا أن الأم تربط بين معايير النظام الاجتماعي الثقافي لمجتمع وبين شخصية ابنها فيما يتعلق بالأوصاف المراد توفرها في البنت، وذلك حتى تقنعه من كل الجوانب.

بعد موافقة الابن يتم الاتصال الأول بين أم الفتى وأم الفتاة في سبيل توضيح نية الخطبة؛ بعد ذلك تتطلع أم الفتاة على هذا الفتى خاصة من الناحية المادية. وهذا السلوك يعتبر بمثابة تحقيق حول أحوال العائلة، وبعد فترة معينة ترجع أم الفتى للخطبة حتى يتفق الطرفان على كل شروط الزواج، حينئذ يؤمر الأبوان على الاتصال بينهما بعد تحديد لهما مجال الحوار اللازم الذي يجب أن يجري بينهما.

يستنتج من كل هذه التحركات والعمليات التي تجري لدى بعض العائلات والتي تدور كلها حول محور الزواج، أن الجماعة العائلية هي التي تقوم في غالب الأحيان باختيار القرين وليس الفرد، وبالرغم من أن الاختيار هو حق شرعي للجيل الذي يسعى للزواج إلا أنه مازالت هناك عراقيل كثيرة تعيق الشبان والشابات عن إجراء اختيار حر وشخصي مقرون بالمعرفة العميقة للقرين المختار (زهير حطب، 1976: 258) والسبب في ذلك هو الاحتراس المفرط الموجود في أذهان الشباب والمتمثل في عدم الثقة والائتمان لممثل الجنس الآخر "الليا من الرجال يمن الماء في الغربال" (André Demeersman 1967 : 213) بالإضافة إلى المشاكل الاقتصادية والمادية التي تعاني منها الشبيبة عامة الشيء الذي يجعل وضعيتها ضعيفة أمام آراء وتدخلات الأولياء في مثل هذه الشؤون، ونظرا لكل هذه العوامل والأسباب يلاحظ أن الشاب والشابة لا يقدمان على الزواج إلا بعد موافقة والديهما وفي كثير من الأحيان يضحيان بحبهما أو اختيارهما في سبيل إرضاء والديهما. لأن

التقاليد المتعلقة بالزواج لازالت تحكمها مفاهيم خاصة، وإذا كان هناك تغير فهو لم يبلغ المدى الذي يمكن أن يؤدي إلى تغير بنائي عميق (سناء الخولي، 1984: 443-444).

وعلى أساس هذا لابد من الإشارة إلى أن "الزيجات التي تحدث بهذه الصفة لا تعني إتحاد الرجل والمرأة، ولكن هي بمثابة تحالف عائلتين أو جماعتين من الأولياء بحيث أن الزواج يخلق روابط ممتدة ليس فقط بين الزوجين ولكن بين جماعتيهما أيضا".(Bouraoui Soukina , Djamchid Benham 1986 :44) الأمر الذي يؤدي إلى "اعتبار الزواج كمؤسسة إنتاجية للأولاد وليس بإتحاد شابين لتحقيق سعادتهما الشخصية. بل العكس يعمل كل واحد منهما بكل جدية للمساهمة في تقوية العائلة الكبيرة بالخلف حتى تكون ذات قيمة وشأن في العشيرة أو القبيلة أو القرابة" (Carmel Camilleri 1973 : 16-17).

أ-2-ظاهرة الطاعة:

مما لا شك فيه أن الإسلام حضي على الطاعة بقوله "وأطيعوا ولي الأمر منكم" ولما كان الأب أو الزوج هو رأس الأسرة فإن السلطة قد آلت إليه، لأن من يقول الطاعة يتصور وجود سلطة، بهذا المعنى تكاد تكون ظاهرة طاعة الزوجة لزوجها والأبناء لوالديهم هي إحدى أبرز الظاهرات في الأسرة العربية (زهير حطب، 1976: 189-188) ونجد العائلة الجزائرية في هذا المجال تحث كثيرا على هذه الشيمة وتعمل على ترسيخها في الأفراد منذ الصغر لأن أساس التماسك والتناسق العائلي ينبع من هذه الصفة وعلى مدى توفرها بين أفراد العائلة أثناء معاملتهم بعضهم البعض في حياتهم الاجتماعية. والاحترام المكنون للأب (Azemni Amghar ; non daté : 28) "بحيث يتوجب على رب البيت أن يكون شديد الحذر وأن يفرض كلمته في العائلة حتى يكون عبرة لأولاده.(Djamchid Benham Soukuna Bouraoui ; 1988 :166) إذ أن كل فرد يعرف أي

تصرف سيأخذ واي سلوك سيظهر وأي تفاعل سيتبع أثناء مناسبة من المناسبات أو عند تواجد فرد من الأفراد (Slimane Medhar ; 1988 :166) والشيء الذي يجب أن يشار إليه هو أن هذه "الطاعة لها أسباب تجعلها تفرض على الأفراد فرضا ومن هذه الأسباب يذكر مسؤولية الإعالة وارتباط معيشة الجميع بكاسب الأسرة وقد يكون أبرز دليل على ذلك هو تحول واجب طاعة الفتاة بعد زواجها، من طاعتها لوالدها إلى طاعتها لزوجها، بعد أن تحولت مسؤولية إعالتها من كاسب الأسرة المنشأ إلى كاسب المتفرعة منها، وما يصدق بالنسبة للزوجة يصدق بالنسبة للأبناء (زهير حطب، 1976: 189-188) ومن الأسباب التي يمكن ذكرها أيضا في هذا المجال ما يسمى بدعاوى الشر الناتجة من رضا أو عدم رضا الوالدين، فدعوة الأب الخيرة تمثل الشيء الغالي بينما دعوته الشريرة أو نقمته تعتبر الشيء الخطير بالنسبة للفرد" (Amghar Azmni ; non daté : p28).

يستنتج من كل هذا أن في هذه الطاعة توجد علاقة سيطرة من طرف ورضوخ وتبعية من طرف آخر وهذا النمط العلائقي تجده من الأقوى إلى الأضعف، من الرجل إلى المرأة، من الكبير على الصغير من الإخوة الأكبر منا إلى الذين يلونهم عن طريق هذا النظام نصل إذن إلى نتيجة وهي: أن الطاعة مفروضة والمقاومة ممنوعة، والأمثلة الشعبية تؤكد ذلك وتقول : "إذا طاح القدر توفاة العشرة"، "اللي ما يسمعش كلام الكبيره الهم تدبيره".

أ-3-السلمية الأسرية:

العائلة الجزائرية متكونة أساسا من مجموعة القرابة الأبوية، وبالتالي فهي تعتبر جماعة مترابطة فيما بينها وذلك بواسطة الجد والأب أو سيد العائلة (Amghar Azmni ; non daté :27).

إذ يخيم عليها جو من الاحترام أو المحافظة على التسلسل السلمي، ويسود بين أفرادها نوع من الترتيب فيما يخص مقام كل واحد.

ففي "الوسط العائلي الجزائري السلمية في السن تلتقي مع السلمية في الجنس، ومكانة الطفل تكون حسب سنه وجنسه، بحيث عن طريق سلمية السن يتكون الهيكل التنظيمي للعائلة وبواسطتها يأخذ كل فرد دوره في الجماعة فهي تخلق نوعا من الفصل بين الكبار والصغار يشبه تماما الفصل الموجود بين الرجال والنساء فيما يخص سلمية الجنس (Techirine Mekideche ; 1985 :85) بينما السلمية الخاصة بالمجتمع النسائي تجد سن الشخص هو الذي يحدد ذلك" (Carmel Camilleri ; 1973 :10) فمثلا الجدة، خاصة إذا كانت لا تزال تمتع بكل قواها العقلية والجسمية، تكون بمثابة دعامة الأسرة وعصب الحياة فيها، إذ تستشار في كثير من الأمور وتنخفض بجانبها كافة الأصوات ولا يستطيع أبناؤها أو أحفادها حتى وإن بلغوا سنا معينة من الكبران يتجاوزو حدود علاقتهم معها، ولهذا يلاحظ أن السلمية تفرض نفسها عند الأشخاص المسنين على الشباب وعند الرجال على النساء".(Soukina Bouraoui Djamchid Benham, 1986 :39).

ومن الدوافع التي كانت تدفع الأب لأن يحرص بصفة حذقة على حدود السلمية الأسرية تجد خوفه من أن تنشر الألفة والمزاح بينه وبين أفراد العائلة الشيء الذي يؤدي إلى تقليص الموانع الاجتماعية وتشجيع اللامبالاة ضمن العائلة، الأمر الذي يعاكس تماما النموذج الاجتماعي الثقافي للعائلة الجزائرية والذي يحث على التمسك والتشبث بمثل هذه المعتقدات ،فمن القوانين التي يفرضها مجتمعنا وتطبقها كثيرا من العائلات هو الحرص على تجنب كل تحويل يؤدي إلى إعادة النظر في شرعية وصحة هذه المنظومة (Slimane Medhar,1988 :36) السبب الذي جعل الأسرة الجزائرية تظهر كجماعة ملتحمة ومنغلقة على نفسها، ذات سلمية أسرية قوية صعبة النفاذ والدخول فيها إلا إذا أقيمت معها علاقة من نوع القرابة كالزواج بإحدى بنات العائلة مثلا.

واستخلاصا لكل ما سبق تدرج هذه النتيجة وهي أن السلمية في العائلة كانت تضع حدا لروح الألفة فلا تنشر ،ولروح الديمقراطية فلا تنمو (زهير حطب، 1976: 190).

أ-4- ظاهرة التفرقة بين الجنسين:

"إن كل فرد يولد في إطار يحدد له منذ مولده، طريقة حياته المستقبلية واتجاه نموه، ويضع تعريفا لما يتوقع منه أن يفعله بناء على انتمائه لجنس معين (ذكر وأنثى). فانتماء الفرد إلى جنس معين يعتبر بعدا من أبعاد الشخصية التي توضع في الاعتبار في كل فعل إنساني" (سناء الخولي، 1984: 22).

يلاحظ في العائلة الجزائرية مجموعة من السلوكات والممارسات الاجتماعية التي تعكس هذا الإطار الثقافي الذي يميز بين الجنسين ،إذ تثير ولادة الذكر مشاعر البهجة ويسري خبر ولادته بسرعة الكهرباء، ويستقبل بالزغاريد.

أما الأنثى فكانت تنشر الذعر والأسف حين ولادتها، على البيت وعلى من فيه (زهير حطب ،1976: 190-191) خاصة إذا كان البيت يفتقد للعنصر الذكري ويكثر فيه العنصر الأنثوي ومن الدلائل الأخرى الملاحظة في الأوساط العائلية والتي تبرهن على هذا التمييز. تجد أنه مبكرا في العائلة، "الفتاة الصغيرة تعرف أن مكانتها الأسرية الاجتماعية و"مكانة الفتى مختلفتان عن بعضهما البعض، حيث منذ ذلك الحين تصبح خاضعة لأخيها ولا تستطيع أن ترفض له أي شيء حتى الدفاع عن نفسها في حالة اعتداء هذا الأخير عليها (Akila Amir, 1984 :33) فالبنت منذ الخامسة أو ما قبلها تعي أنها تعامل بطريقة تختلف عن كيفيات التصرف تجاه الولد الذكر فالقساوة عليها تظهر عند أدنى كلمة أوسلوك مرتبط بالجنس (علي زيعور ،1977: 69) بحيث تلاحظ أن موقف أفراد العائلة يتم دائما ضد البنت فيحرم عليها اللعب خارج المنزل أو الاختلاط بالجنس الآخر.

بينما إذا لوحظ الطفل يقوم بنفس السلوكات لا تكن نفس المعاملة بل وأنه يشجع على ذلك قصد تنمية مميزات الرجولة فيه، لذلك "فالطفل بمجرد دخوله في المجتمع الذكري، كان دائما يمحي ويشطب الفتات، ويظهر هذا في سلطة الشاب على الأم، وعلى الأخت الأكبر سنا". (Carmel Camilleri ; 1973 :10).هذا ما جعل نقد الأنثى يكون أكثر من الذكر خصوصا في مواضيع الجنس والحرية في الخروج والعلاقات مع الجنس الآخر، بالإضافة إلى منعها من إبراز أي مبادرة أو سلوك يكون خارج الإطار الاجتماعي الثقافي المقبول.

ومن أجل تأمين ذلك استوجب شدها بقوة داخل المنزل العائلي في ظل مراقبة اجتماعية شديدة خاصة إذا لم يكن لها أي مبرر للخروج.

ونظرا لتواجد مثل هذه الذهنيات وبروزها على الساحة الاجتماعية يظهر المجتمع الجزائري منقسما إلى قسمين واحد رجولي والآخر نسائي، وكل طرف لا يثق في الآخر.(Nefissa Zerdoumi,1982 :192) .

إلا أن الشيء الذي يجب توضيحه في هذا المقام والذي يتوجب معرفته هي تلك الأسباب والدواعي التي أدت إلى ظهور مثل هذه الأفكار التمييز به بين الذكر والأنثى، إذ تجد سلسلة لا تنتهي من التمييزات والامتيازات لصالح الذكر، والمضادة بصفة واضحة للأنثى.

فالذكر يعتبر عماد المجتمع العربي ومحور حياته، "ولقد اكتسب هذه المنزلة لأنه يحقق حلم العربي المزدوج: الخلود (الاستمرارية) والرجولة، فالحساب المبني على النسل الذكري يعني أن كل ذكر هو حلقة تضاف إلى سلسلة البقاء وهو في الوقت نفسه أداة لتجديد وتكاثر الحلقات (زهير حطب، 1976: 190-191).

ومن الأسباب كذلك التي تجعل الطفل محبوبا هو أنه " يزيد من قوة العائلة ويمثل النعمة الإلهية ويساهم في الإكثار من الأرزاق، ويعتبر أيضا بمثابة التأمين الاجتماعي للوالدين عندما يتقدمان في السن".

أما العنصر النسوي فلا يؤخذ بعين الاعتبار إلا كوسيلة لتطوير العائلة عن طريق الولادة.(Amghar Azmni ; non daté :27) فالمرأة تعتبر أداة تحالف وتلاحم لا وجود لها خارج إطار هذا الدور وهي ذات جسد يستعمل كأداة للإنجاب والمصاهرة، بحيث قيمتها كلها وشرفها كله يركز في عفافها الجنسي المتمثل سطحيا بغشاء البكرة (مصطفى حجازي، 1984: 212). وعلى الرجل أن يحافظ على شرفها والذي يعتبر الشيء الغالي بالنسبة لها.

وعلى أساس كل ما تقدم يستنتج أن الحياة الاجتماعية لازالت تعم فيها معتقدات وأفكار تهدف إلى التفرقة بين الجنسين وتعمل على تدعيم انسحاب المرأة من العلاقات الاجتماعية في الخارج، ومن جهة أخرى تريد أن تقنعها بدونيتها نحو الرجل، وبالتالي تبعيتها غير المشروطة في كل الميادين.

أ-5-الذوبان في الجماعة العائلية:

" يتعرف الطفل منذ الصغر على مفاهيم الجماعة التي ينتمي إليها والتي تسطر حدوده وتعلمه محددات سلوكه الاجتماعي ففي نظره هناك العائلة وبجانبها الأجانب". (Nefissa Zerdoumi ,1982 :40)

إن أول شيء يتعلمه الطفل هو وجود عالمين في هذه الحياة، "عالم داخلي مقدس وهي العائلة والتي تمثل عالم الأمن والأمان، والمرجع الملاذ الذي يجد فيه كل ما يريد وكل ما يبتغي، وعالم خارجي هو المجتمع والذي يمثل عالم الخطر والتهديد والعدوانية. ففي العالم الأول يتحتم على أفراد العائلة التعاون والتعاطف والتعاضد حتى يتغلبوا على ضروريات العيش، أما في العالم الثاني فيتوجب على أعضاء الجماعة أن يكونوا مستعدين للتصدي للخطر بشريا كان أم طبيعيا. فالعلاقة معه عدائية اضطهادية، والموقف منه إما انسحابي تجنبي أو تهجمي تدميري" (مصطفى حجازي، 1984. 114).

نظرا لهذه الازدواجية داخل – خارج، يشعر الفرد بنوع من لانشـ العاطفي والذي يظهر بهذه الصبغة تمجيد كل ما هو داخلي والعمل على المحافظـ عليه بأي وسيلة، وتبخيس كل ما هو خارجي وعدم العناية به إلا في حدود المنفعة الذاتية. إذ أن احترام مبدأ الملكية الجماعية للعائلة يستلزم القضاء على كل محاولة أثيمة لاعتداء عليها سواء كان الاعتداء من خارج الأسرة أو من بين أفرادها الذين يظهرون روحا أنانية أو يحاولون الاستئثار بمنافعها (مصطفى الخشاب، 1975: 89) فمن القوانين الموجودة في نظامنا الاجتماعي هو أن كل فرد يجب أن يتدخل حسب المعايير المكونة للجماعة (Slimane Medhar ,1988 :104)

من هذا يفهم أن منطقية هذا النظام متكونة على أساس المنع والتحريم والرفض ما هو مخالف للمعايير الاجتماعية التي يجب الخضوع لها بصفة كلية وإلا يكون العقاب. (Carmel Caramilleri ,1973 :20-21) الشيء الذي يؤكد "أننا لا نستطيع أن ننشط في هذا المجتمع حسب الاختيار الشخصي ولكن مفروض علينا أن نضحي من أجل الواجبات الاجتماعية" (Slimane Medhar 1988 :32) ومن الأدلة الصارخة على مدى ترسيخ العقلية الجماعية في الأفراد هي أن "عندما الزوجان الشابان ينجحان في تطورهما تجد عائلة الشاب تعمل على أخذ حقوقها في كل لحظة وذلك بالتهجم على زوجته، فالزوج يلاحظ هذا التصرف ولكن لا يجد أي مبرر لمجابهة أو مقاومة ذلك".(Amghar Azmni ; non daté : 32).

والشيء الملاحظ أن الأفراد في العائلة الجزائرية لا ينشأون لأنفسهم بل لعائلاتهم حيث أن كل نجاح مهني أو مادي أو مالي يحققه الفرد لا يعود أثره عليه فقط، بل يعود في المقام الأول على العائلة بصفة عامة لأن في داخل العائلة لا يوجد هناك قطاع خاص او عمل فردي بل يوجد اشتراك في الجهود والمكاسب بحيث يصبح كل شيء عام ومشاعا لكل الأفراد المتواجدين ضمنها، وإذا ما حدث هناك تجاوز أو عدم احترام لهذه المبادئ والمفاهيم ذات الصبغة العائلية، أو ظهر نوع من الاستقلالية أو عدم الاكتراث من طرف أفرادها، تستجيب الأسرة عادة بردود فعل

مفرطة في تطرفها لمحاولات الاستقلال هذه وتتخذ مظاهر متنوعة وأساليب متعددة، تدور كلها حول الترغيب والتهديد والابتزاز: الترغيب بمحاسن البقاء الذوباني في الأسرة، وما في ذلك من امتيازات وضمانات مادية ومعنوية والتهديد بالنبذ والحرمان والعقاب والتنكر وحتى إذا تحتم الحال التصفية الجسدية (مصطفى حجازي، 1984: 117).

وهذا ما يؤكده "العيد دبزي وآخرون" بقولهم: "النيف (الشرف) هو القيمة العليا التي توحد الجماعة العائلية وبالتالي القبول بكل التضحيات (Laid Debzi et Robort Descloitres, 1963 :46).

أ-6-ظاهرة التفاخر العائلي:

تعتبر ظاهرة التفاخر العائلي من الظواهر الملاحظة كثيرا والمتكررة بصورة واضحة على مستوى العلاقات والتفاعلات الاجتماعية بين أفراد العائلة وذلك لهدف التظاهر والبروز أحسن من الآخر في كل المجالات مما يسمح للعائلة باحتلال مكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع وبالتالي التأكيد على قوتها وهيبتها ونفوذها في مختلف ميادين الحياة.

يلاحظ هذا التفاخر خاصة في الخارج أين "كل عائلة تعمل على إظهار الوجه الأكثر تشريفا عن الطريق التظاهر بالقوة والمال والتمسك بمختلف القيم الأخلاقية، ولهذا يجب على كل فرد عضو في العائلة أن يخضع لهذه التعاليم حتى يبرز الوجه الايجابي للأجانب وهذا ما يسمى بالشرف".(Carmel Camilleri , 1973 :11) لأن من بين "قوانين النظام الاجتماعي للعائلة الجزائرية تجد وجوب إظهار الرضا، والتعبير عنه في غالب الأحيان، مهما كانت الكميات المتحصلة عليها".(Slimane Medhar, 1988 :3) سواء أكان هذا الشيء المتحصل عليه ماديا أو معنويا. أما إذا ظهر عكس ذلك فهذا يعني أن الفرد انحرف عن المسار التفاخري الذي تعمل كل عائلة على تبينه وتقويته أما الآخرين.

ومن بين الممارسات الاجتماعية التي تؤكد هذه الصفة التفاخرية وتواجدها على الساحة الاجتماعية وتغلغلها في نفوس الأفراد، يذكر أنه "مهما كان الدخل الفردي متواضعا، فالاهتمام بالزينة والمظهر الخارجي" (الثياب) يلاحظ على الأغلبية أثناء المناسبات. ويرافق تلك الأناقة المفتش عنها، جانبها الآخر ممثلا في التأنق في الكلام، كاستعمال المفردات المزوقة والكلمات الفصيحة والأجنبية (علي زيعور، 1977 :81).

وإذا أقيمت علاقات مع الخارج (المحيط الخارجي)، نجبر على أن نظهر أننا مسلحون في جميع الأصعدة على الآخر، لأن في كل الحالات هناك قلق كالخوف من الآخر ليس فقط من أن يظهر قوته ولكن من أن يبرهن على ذلك أما بالنسبة للحياة المنزلية فإن كل ما يوجد في داخله لا يجب أن يعرفه من هو في الخارج. فمن المبادئ الهامة في العائلة عدم ابراز أي شيء يعود بالخطر على الجماعة، بمعنى آخر يجب المحافظة على أسرار العائلة وهذا ما يرسخ في الأفراد منذ الصغر (Slimane Medhar, 1988 :134).

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن الفرد في العائلة الجزائرية يبذل كل ما وسعه ليظهر الصورة الايجابية عن عائلته وليخفى من جهة أخرى كل ما يجري بداخلها وخاصة تلك الأمور السلبية التي ممكن أن تعود بالتهديد على الكيان العائلي.

يستخلص من هذا أن المحافظة على السر العائلي في العلاقات الاجتماعية وحمل اسم ذو شرف كبير، وفرض العائلة عن طريق الافتخار المفرط تعد أمور لها أهمية كبيرة، لأن الاعتبار الاجتماعي يكون حسب صنف العائلة لذلك فكل فرد مسؤول على الهيبة والشرف الجماعي".(Robert Descloitres et Laid Debzie,1963 :45). إذ "لا يزال الأفراد في المجتمعات الحديثة يحرصون كل الحرص على احترام أسماء عائلاتهم، وينظرون إليها بعين التقدير والاعتبار ولا يرضون ضيما يلحقها أو مذلة تنزل بها. وما زلنا إلى الآن نفخر بالأنساب والألقاب الجمعية التي انحدرت إلينا منذ القدم". (مصطفى الخشاب، 1975:90).

بعد تفحصنا وتحليلنا لمختلف الظواهر الاجتماعية الملاحظة في كثير من العائلات يمكننا أن نقول: أن الحياة اليومية الاجتماعية الجزائرية مؤطرة بقوانين ومبادئ اجتماعية تربوية صلبة وثابتة لا يمكن زعزعتها أو استبدلها نظرا لتغلغلها في عقول وأجساد أفرادها. الشيء الذي يعسر عملية ترسيخ مفاهيم أخرى جديدة في أذهانهم أو تبنيها في أدوارهم الاجتماعية وسلوكاتهم الشفوية والجسدية.

ب-السمات النفسية الاجتماعية للشخصية الجزائرية:

تتميز الشخصية الجزائرية بمميزات وسمات نفسية اجتماعية متنوعة، تشير كلها إلى نوع الذهنية والعقلية الاجتماعية الموجودة في نفسية الفرد الجزائري، والتي من خلالها تنتج معظم سلوكاته وتصرفاته المتجلية بشكل واضح في الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها في حياته اليومية الاجتماعية أثناء تفاعله مع غيره من الأفراد.

من بين هذه السمات الملاحظة في شخصية الجزائري يذكر عزة النفس التي كثيرا ما يتثبت بها الفرد في مجتمعنا، حتى أنه يقبل الخسارة في كل شيء مقابل الاحتفاظ بعزته وكرامته وذلك في جميع الأحوال والظروف. بعد هذا نجد ميزه التحدي والنرفزة التي تظهر عند الفرد بمجرد حدوث شيء من سوء التفاهم بينه وبين الآخر، حيث تراه يميل إلى الظهور بمطهر العنف والإرهاب حتى يخيف خصمه والتغلب عليه، لأن التراجع إلى الوراء أمام الخصم يعتبر من الأمور غير المحبذة إطلاقا في المجتمع.

ومن السمات البارزة أيضا يمكن ذكر سرعة التأقلم مع الأحوال والظروف الاقتصادية والاجتماعية مهما كانت صعوبتها، فهو يقوم بسلوكات وأدوار تمكنه من التغلب عليها، ثم نجد هناك سمات أخرى يتصف بها الفرد الجزائري وهي تتمثل في الحساسية وعدم تقبل النقد وميزه الابتعاد والتخلي عن الأعمال اليدوية وحب القيام بأعمال الإشراف والتسيير.

وفيما يلي يمكن التطرق بالدراسة والتحليل لهذه السمات والصفات حتى تكون أكثر وضوحا.

ب-1-عزة النفس والأنفة:

تعتبر من السمات البارزة في شخصية الفرد الجزائري، والملاحظة بصفة واضحة على مستوى سلوكه وتفاعله مع الآخرين وفي مختلف مجالات الحياة اليومية الاجتماعية. يمكن أن يتقبل كل شيء إلا أن تتعرض شخصيته للمهانة والتحقير، فهو يستطيع أن يتحمل مختلف مصاعب الحياة من جوع وعطش وحرمان ولكنه لا يقبل أن تهان نفسه خاصة أمام وجود أفراد آخرين.

وهذا ما يؤكده هذا المثل الشعبي الذي يقول: "معيشة الحيف ولا ضياع النيف" وكلمة (النيف) تعني في اللهجة الجزائرية الأنف الذي يرمز إلى الإباء والشرف والكرامة. أما بالنسبة للمثل فمعناه يدل على الإنسان أن يتحمل الشقاوة وشظف العيش بعزة وكرامة خير له من أن يعيش في النعيم ذليلا مهانا. ويؤكد معنى هذا المثل مثل آخر متداول في بلاد القبائل الكبرى يقول: "أنرز ولا أنكنو"، وفي معنى المثل تشبيه لعزة الإنسان وكرامته بمادة الفولاذ الذي لا يقبل الكسر ولا يقبل الانثناء. ومضمون المثل هو أن الإنسان الشريف العزيز النفس يفضل الكسر والفناء على الإنحاء والذل والدونية" (أحمد بن نعمان، 1988: 403-404).

ب-2-التحدي وسرعة النرفزة:

تتميز الشخصية الجزائرية بروح التحدي الزائد عن اللزوم إلى درجة التهور أحيانا وتعود هذه السمة إلى عوامل تاريخية بعيدة الجذور في المقاومة العنيفة لأمواج الغزاة الذين استهدفوا البلاد على امتداد التاريخ وآخرها الاحتلال الفرنسي. وقد أدت هذه المقاومة الطويلة إلى ترسيخ روح التحدي في نفوس الأفراد وما تزال متأصلة في نفوسهم إلى الآن وتتجلى بوضوح في المثل الشعبي التالي "ألي آذاك أذيه ولو كان أجلك فيه" ومضمونه أن الذي اعتدى عليك قابله بالمثل ولو

أدى ذلك إلى الموت، وهو قمة التحدي والمعاملة بالمثل (أحمد بن نعمان، 1988: 385).

والشيء الذي دعم هذه الصفة –روح التحدي– ميزة النرفزة وسرعة الانفعال التي ينفرد بها الجزائري بشكل واضح إذ أننا نلاحظ الكثير من المناوشات والاعتداءات الجسدية بين الأفراد لأسباب يمكن أن نقول عنها تافهة، وشاغرة من الأهمية لأن تؤدي إلى مثل هذه الصراعات والاضطرابات. ولكن بالرغم من ذلك، فبمجرد اصطدام شخصين مثلا بالجسم أو بالسيارة وحتى إن كان الاصطدام خفيف ولم تنجم عنه أي خسارة مادية أ جسدية إلا أنك ستلاحظ بعد ذلك تبادل الكلام غير اللائق لتطور الأحداث إلى تبادل اللكمات والضربات بينهما. "الزعاف يلان ذقول أتكسن إيفاسن" ومعنى المثل أن القلب المملوء بالغيظ لا تفرغه إلا يدي (أي استعمال الأيدي).

ب–3–التأقلم مع الأحوال المستجدة:

إن الظروف الصعبة التي يعيشها الفرد في مجتمعنا خاصة منها الاقتصادية والاجتماعية جعلته يعمل كل ما في وسعه من أجل تخطيها والتغلب عليها، حتى يحصل على القدر الكافي من العيش له ولذويه. وبما أن المشاكل التي يعاني منها الفرد كثيرة ومتكررة في حياته اليومية، أصبح الجزائري يقوم بسلوكات وتصرفات تتلائم والوضعية التي يعيشها.

وما نلاحظه على أرض الواقع هو تأقلم الفرد مع الظرف الذي يكون فيه فمثلا إذا ما وجد نقص في مادة من المواد الغذائية على مستوى السوق الوطنية تجد كل الأفراد يعملون على سد هذا النقص بشتى الوسائل، والنتيجة هي: بالرغم من عدم وجود تلك المادة إلا أن الجزائري بفضل تحركاته المستمرة وعلاقاته المتعددة مع العاملين في هذا المجال، يستطيع أن يتحصل عليها.

يستنتج مما سبق تمكن الفرد الجزائري من تخطي العقبات لأجل تحقيق مصلحته الشخصية والعائلية وتأمينها قدر الإمكان.

ومن خلال هذا تدرك قدرة الجزائري في التكيف مع الأحوال لاقتصادية التي تدخل حياته –حتى وإن كان هذا التكيف ظهر على شكل صراع قائم بين الفرد ومشاكل الحياة–

ومن "الشواهد الثقافية في الأمثال الشعبية التي تؤكد هذه السمة نذكر هذا المثل الذي يقول :"كن ذيب لا يكلك الذياب"، ويعني أن الإنسان ينبغي أن يتكيف مع الظروف ويساير الأحوال ويأخذ حيطته في هذه الحياة. فالفرد ملزم ومجبور على ضرورة التكييف والتأقلم مع الأوضاع الجارية في الساحة الاجتماعية التي يعيش فيها لأن عكس ذلك يعني الانسحاب منها. وهذا ما يبرهن عليه المثل الشعبي المشهور في مختلف الأوساط الاجتماعية للبلاد وهو: "أعمل كما يعمل جارك ولا حول باب دارك". ومضمون المثل كما هو واضح يدعو إلى التكيف مع الأحوال ومن لم يستطع فليهاجر أفضل حتى لا يبقى شاذ يعيش على هامش المجتمع". (أحمد بن نعمان، 1988: 370–371).

ب–4–الحساسية وعدم تقبل النقد:

يتميز أفراد المجتمع الجزائري عموما بالحساسية المفرطة، وهو بقدر ما يستحسنون الكلمة الطيبة ويتأثرون بها بقدر ما لا يقوون على تقبل النقد الموجه إليهم حتى ولو كان نقدا موضوعيا وفي محله. الأمر الذي تلاحظه على مستوى التفاعلات التي تجري بين الأفراد. فإذا ما وجه أحدهم مثلا ملاحظة أو نقدا يكون في ميدان العمل فإن الآخر لا يتقبله بحيث أنه يعتبر ذلك النقد على أنه شتيمة، خاصة إذا كان مشكل شخصي بينه وبين الشخص الذي نقده.

وبهذا أصبح الناس يشعرون بأن أي نقد موجه إليهم هو نوع من الإهانة ولاحتقار الذي يمس بالكرامة وينقص من قيمة الشخص.

"ولعل من المفارقات التي تستدعي التعجب في هذا الخصوص أن الجزائري بقدر ما يكره أن يوجه إليه النقد، وبقدر ما يحب أن ينقد الغير، كما أنه بقدر ما يحب أن يكون صريحا مع الغير، لا يقبل صراحة الغير معه إلا على مضض". (أحمد بن نعمان، 1988: 433).

ب-5-الترفع عن العمل اليدوي:

إن الكثير من الشباب في وقتنا الحالي لا يريدون أن تكون مهنتهم في ميدان الأعمال اليدوية، فهم يميلون أكثر إلى الأعمال الإدارية ذات الطابع الإشرافي وما يبرز ذلك تزايد الطلب على الوظائف الإدارية والتخلي الملحوظ عن الأعمال الحرفية واليدوية، ولعل هذا مرتبط بسمة عزة النفس -ينظر الجزائري إلى هذه الأعمال والمهن بأنها محقرة للفرد ومنقصة لشخصيته- وقد أصبح معظم الأفراد نتيجة لهذا الشعور يتجهون إلى المهن التي تضمن لهم مسؤولية التسيير والأشراف دون المشاركة الفعلية في الأعمال.

ويؤكد هذه "الحالة مثل شعبي يقول: " أنت مير وأنا مير وشكون يسوق الحمير". والمثل يعبر بوضوح تام عن هذا الواقع الذي جعل الناس يتهافتون على الوظائف الحكومية ومناصب الأشراف أو ممارسة الأعمال الحرة كالتجارة وغيرها، ولا يقبلون على الأعمال اليدوية إلا مؤقتا وعند الضرورة. (أحمد بن نعمان، 1988: 439).

وبناءا على هذا يمكن أن نتصور قوة الضغط الممارس على القطاعات الإدارية في الميدان الاقتصادي وتقلص القطاعات الأخرى لاسيما من الأيدي العاملة، والإمكانيات البشرية اللازمة لنموها وتطورها.

وما يمكن قوله في هذا الصدد أنه إذا استمر قطاع التشغيل على هذا المنوال فإن النتائج ستكون وخيمة على الاقتصاد الوطني.

بعد لتحليل الموجز لهذه السمات الملاحظة بصفة متكررة على مستوى شخصية الفرد الجزائري والمتجلية بصورة واضحة أثناء قيامه بأدواره الاجتماعية في هـذه الحياة، يستنتج شيء مهم جدا وهو أن الجزائري لازال يتخبط في مميزات وصفات نفسية اجتماعية تدل على التخلف الذي يعرقل نمو المجتمع اجتماعيـا واقتـصاديا. وابتعاده عن الشخصية اللازمة، للتحرر والتقدم في مختلف الميادين.

المراجع باللغة العربية :

1. زهير حطب: تطور بنى الأسرة العربية والجذور التاريخية الاجتماعيـة لقـضاياها المعاصرة، معهد الإنماء العربي ط1، لبنان 1976،.
2. سناء الخولي: الأسرة والحياة العائلية، الإسكندرية، دار المعارف الجامعية، 1984.
3. علي زيغور: التحليل النفسي للذات العربية، أنماطهـا الـسلوكية والأسـطورية، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1977.
4. مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور ،معهـد الأنمـاء العربي، 1984.
5. أحمد بن نعمان: سمات الشخصية الجزائرية، من منظور الانتروبولوجيـا النفـسية، المؤسسة الوطنية للكتاب 1988.

المراجع باللغة الأجنبية :

6. Zerdoumi, N ; Enfants d'hier, l'éducation de l'enfants en milieu traditionnele Algérien, Paris, V François maspero, 1982.
7. Camilleri, C : Jeunesse, famille et développment, Essai sur le chargement socio-culturel dans un pays du tiers-monde (Tunisie). Paris, Edition, CNRS , 1973.
8. Demmerseman, A : La Famille tunisienne est les temps nouveau tunis : maison tunisienne de l'édition , 1967.
9. Benham,D.Bourouis,s : Familles musulmanes et modernités, le defi des Traditions Paris, 1986.
10. Amghar A : La famille Algérienne devant les problèmes sociaux modernes, Institut des belles lettres arabes IBLA non date.

11. Mekideche, T : La Rue espace de jeu en Algérie Ezzanka (Thèse de doctorat de 3 eme cycle Paris v 1985.

12. Ammir, A : Considération sur la situation psychosociologique actuelle de la femme Algérienne. Collectif présence de Femme Alger OPU 1984.

13. Medhar, S : de l'individu au citoyen : Les entraves a la réalisation de développement eu Algérie (Thèse de doctorat d'état Paris, V, 1988).

14. Descloitres, R, Debzi, L : Système de parenté et structures Familiales en Algérie, C NRS 1963.